الحكي الشعبي عن الغزو
"دراسة لروايات التاريخ الشفوى فى كتاب
"الإلمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية"

الباحث/ يوسف راشد رشدان المطيري

شهد المنهج التاريخى تطورات خرجت به من دائرة الركون للمصادر التقليدية الضيقة لمصادر تاريخية أكثر رحابة استطاعت أن تستنطق ما عجزت تلك المصادر عن البوح به، فبدلاً من الاكتفاء بمصادر التاريخ العام وكتب الرسل والملوك والنصوص التاريخية المصنوعة برعاية السلطة أو المكتوبة عن المهزومين فى مطابخ المنتصرين، اعُتمدت مصادر أخرى غير تقليدية " نظر لها أصحاب المناهج التقليدية كبضاعة مزجاة... حتى ثمَنَ تطور المنهج الرؤية لهذه المصادر فأوفوا لها الكيل وصارت معتمدة لا يكتمل النص التاريخى المعاصر بدونها مثل النوازل وكتب التراث الشعبى وحكايات المهمشين وروايات المغلوبين وأغانيهم والأحلام والمنامات والقصاصون وقبل كل هذا " التاريخ الشفوى " الذى إستطاع إستنطاق البسطاء والضحايا عبر عصور التاريخ وأعطى المساحة لهم أن يعبروا عن أنفسهم وأن يدلوا بآرائهم فى الأحداث المختلفة وفهم ماهية أدوارهم فى سير هذه الأحداث.

على أية حال فإن ما يعنينا فى هذه الدراسة هو رصد " الحكى الشعبى عن الغزو " وروايات الفاجعة الشفوية من خلال كتاب النويرى السكندرى " الإلمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية " أو الذى عُرف أيضاً بمرآة العجائب، هذا الكتاب الذى يقع فى أربع مجلدات والذى يُعد المصدر الأول للتأريخ لحملة غزو القبارصة لمدينة الإسكندرية المصرية عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م [(١)].

يعتمد النويرى فى هذا الكتاب على عدد ضخم من الروايات الشفوية كانت بمثابة صور سينمائية متحركة عن الفاجعة التى اجتاحت المدينة وأراجيف الغزو وإنطباع السكان بين

(١) لمزيد من التفاصيل عن غزوة القبارصة راجع: سعيد عاشور قبرص والحروب الصليبية الهيئة العامة المصرية للكتاب ٢٠٠٢. ص٥٦: ٧٠ ؛ السيد عبد العزيز: سالم تاريخ الإسكندرية، دار المعارف ١٩٦٩، ص٣٤١-٢٤٩؛ ايهاب محمد رزق: تاريخ العلاقات الدينية والمذهبية بين فئات المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه، مصر، ٢٠٢١، ص ٢٩٨: ص ٢٠٤.

Atiya: (A.s): Crusades in the later Middle Ages, London ١٩٣٨, PP ٣١٩-٣٤٨.

وهناك دراسة عن هذه الحملة لسهير نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة، ٣٤٧هـ/ ١٣٦٥م، دار عين القاهرة، ٢٠٠٢م.

الخوف والقلق والأسى والحزن ومتابعة الأحداث والترقب والأمل والقنوط وصولاً للمشاعر المخلطة فى نهاية الغزو بين فرج الجلاء وأسى الخراب.

التاريخ الشفوى (Oral History):

هو ميدان بحثى جديد ينتمى إلى دائرة العلوم الاجتماعية وهو فرع علمى يندرج تحت علم التاريخ بمفهومه العام، وهو ليس نظرية أو منهجاً فهو بوصفه فرعاً علمياً يعتمد النظريات والمناهج الملائمة له لاستنطاق المهمشين والبسطاء والضحايا، والتاريخ الشفاهى هو المصطلح الذى ارتضاه الدراسون ليُطلق على هذا الميدان، وهناك مصطلحات تستخدم كمرادف لهذا المصطلح منها التاريخ من أسفل ودراسة المجتمع المحلى، دراسات الموطن[١]،والتاريخ الشفاهى حسبما عرفته الكتابات المتخصصة قديم قدم التاريخ نفسه، بل كان التاريخ الشفاهى هو النوع الأول من واعتبر التايخ الشفاهي إحدى أهم علامات المؤرخ الكبير [٢].

وتتأتى الخصوصية الكبرى لمصدرية التاريخ الشفوى من أن المادة الوثائقية المخطوطة أو المطبوعة أصبح لها مكملات كالروايات الشفوية المسجلة والتقارير والأفلام وأشرطة التسجيل وغيرها من وسائط الحفظ الرقمي [٣]، ومن الجدير بالذكر فقد كانت المادة الشفوية معتمدة بشكل أساسى فى أدبيات الكتابة التاريخية فى حركة التدوين الإسلامى حتى شهد العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٣٢هـ/ ٧٤٩- ٨٤٦م) الانتقال من الشفاهية إلى الكتابية والقيد في الدفاتر والتسجيل في الكتب، وقد تمت هذه العملية الواسعة بإشراف الدولة، ابتداء من عهد أبي جعفر المنصور، والتي صبغت الحياة الفكرية والاجتماعية العربية الإسلامية بطابعها لفترة من الزمن امتدت نحو قرن من الزمان عرف بعصر تدوين العلوم[٤].

وفى سياق إعتماد المصادر الشفوية كمصادر أصيلة فى الكتابة التاريخية لذا يسعى كثير من الباحثين ممن يكتبون موضوعات حول فترات معاصرة إلى إجراء لقاءات مع شخصيات كان لها- أو يعتقد في أن كان لها- دور في صناعة الأحداث التاريخية في فترة معينة، ولا بأس في ذلك. وفي كثير من الأحيان يخرج الباحث من مثل هذه اللقاءات ببعض الحقائق التي قد يصعب عليه الحصول عليها من بين أوراق الأرشيف،

(١) خالد أبو الليل: التاريخ الشفاهى الأصول النظرية والتجليات العربية، بحث منشور بمجلة عالم الفكر، المجلد ٤٣، الكويت،٢٠١٤، ص ٢٤٤.

(٢) خالد أبو الليل: التاريخ الشفاهى، ص ٢٤١.

(٣) جمال حجر: من وثائق التاريخ الحديث، الإسكندرية، د.ت، ص ٣١ .

(٤) أحمد محمود عبد الجليل، تدوين العلوم في العصر العباسي، رسالة ماجستير، آداب عين شمس، ٢٠٠٤م.

فضلاً عن أن الباحث حين يلتقى بالأحياء إنما يتجسد أمامه الماضي حياً، ليس في شخص من يلقاه من صناع الأحداث التاريخية فحسب، وإنما في كلماته وتعبيراته وتجسيده للصور والمواقف التي عاشها. فيشعر الباحث وكأنه عاش الفترة التي يكتب عنها، أو على الأقل يري من عاشوها وهم يعكسون صورتها على مرآة حياتهم [١].

مدخل حول غزو القبارصة لمدينة الإسكندرية:

كانت أبرز الحوادث وأكثرها أهمية في عهد السلطان المملوكى الأشرف شعبان حملة بطرس الأول على ثغر الإسكندرية سنة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) وتمكنوا من دخولها ، وكان دخول الإفرنج الإسكندرية لعدة أسباب، منها:

- ضعف حامية الإسكندرية وعدم اهتمام السلطة المركزية في القاهرة بتقويتها.
- اضطراب الأحوال الداخلية بمصر آنذاك فلم يكن على رأس الحكومة سلطان قوي بل استأثر بالنفوذ الأمير يلبغا الخاصكي دون السلطان الأشرف شعبان الذي كان لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره.
- أن مصر قاست كثيرا إثر وباء الطاعون الذي تفشى في ديارها في تلك الفترة واستنفذ هذا الوباء قوى مصر ومات بسببه أعداد كبيرة من السكان.
- علاوة على أن الدفاع في الإسكندرية كان قاصرا إذ إن الأسوار الواقعة من جهة الميناء الشرقية لم يكن عليها مدافعون لحمايتها ولم يكن يتقدمها خندق يمنع العدو من الصعود إلى السور، وكان الخندق الوحيد الذي يدور بالسور يمتد من الباب الأخضر حتى قلعة ضرغام في مسافة قصيرة.

ومهما يكن من أمر فقد دخل الإفرنج الإسكندرية وقد اعتقد من أهل الإسكندرية أنهم تجار البنادقة الذين يأتون بمتاجرهم في ذلك الوقت من كل عام ثم اكتشفوا حقيقة الأمر بعد ذلك[٢]، وكانت سفن الفرنج سبعين مركبا من الأغربة الحربية المشحونة بالرجال، هذا وقد أعملوا في أهلها السيف واستشهد عدد كبير من المسلمين نحو خمسة آلاف وأسروا

---

(١) جمال حجر: من وثائق التاريخ الحديث، ص ١٢٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم، سحر عبد العزيز سالم: دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٩٩م، ص٢٩٠-٢٩٥؛ حمدي عبد المنعم: دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م ، ص٢٠٥، ٢٠٦.

كان نائب الإسكندرية آنذاك الأمير صلاح الدين خليل بن عرام يؤدي فريضة الحج وكان ينوب عنه في الولاية على الإسكندرية أثناء غيابه الأمير جنغرا، ولم يكن الرجل مؤهلاً لهذا المنصب لجهله وقلة حيلته مما جعل الإسكندرية مباحة للحملة الصليبية القبرصية. انظر: النويري: الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الأسكندرية، تحقيق عزيز سوريال، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، الهند، ١٩٧٠م، والنسخة المصورة طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥ ، ج٣، ص٦٥-ص٢١٣-٢١٤، انظر أيضاً: السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٢٢؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، الأنجلو المصرية، ١٩٩٤، ص١٣٩، وعندما وصل الخبر إلى القاهرة تباطأ ثم أرسلت حملة وعندما وصلت الحملة كانت الحملة القبرصية في طريقها للرحيل بسفنهم ومعهم العديد من الأسلاب ومعهم أيضاً خمسة آلاف أسير مسلم ما بين رجال وأطفال ونساء. انظر: المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ج٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م، ج٣ ق١، ص١٠٤، انظر أيضاً عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، الأنجلو المصرية ١٩٨٨، ص ٢١٩. مما دفعه إلى أن يهتم بميناء الإسكندرية وحولها من ولاية إلى نيابة وتحصينها، ثم بدأ في إعداد أسطول ضخم للهجوم على قبرص. انظر: النويري، الإلمام، ج٣ ص٢٣١-٢٣٣ ؛ محمد محمود النشار: العلاقات الأرجوانية المملوكية، دار رؤية، القاهرة، ٢٠١٨، ص ١٧.

بعض النساء والأطفال وهلك الكثير منهم وأحرقوا باب رشيد ونهبوا الأموال والغنائم، لقد كان واضحاً مدى ما تعرضت مدينة الإسكندرية أثناء اقتحام حملة الملك بطرس الأول لوسنيان لها، لأعمال وحشية من رجال الحملة، حيث تعرض أهلها للقتل والسلب، وأصيب من فيها بالرعب البالغ، والذعر الشديد، الأمر الذي أجبر الأهالي على الفرار من المدينة، وحسبما نُقل أن جنود الملك بطرس انتشروا في أنحاء المدينة يقتلون قتلاً ذريعاً من يصادفونه في طريقهم، كما يصف النويري السكندري ما شاهده بنفسه من عملية فرار الأهالي من المدينة خوفاً من تعرضهم للقتل أو الأسر، قائلاً لقد تزاحم الأهالي على أبواب المدينة فأصيب من أصيب وسلم من سلم ونجا [١].

وفي حقيقة الأمر فإننا في هذه الدراسة لن نتوقف عند أحداث الغزو التي أرخ لها العديد من الباحثين وأُفردت لها دراسات عديدة رصينة، ولكن ما يعنينا هو ما يتعلق بالحكي الشعبي عن الحملة وآثاها في الوجدان الشعبي كما نقله النويري السكندري، الذي أرخ لشل الحملة بجملته البديعة أن بطرس " دخلها لصاً وخرج منها لصاً".[٢]

الرواية الشفوية والحكى عن الغزو:

تحضر الروايات الشفوية بشكل واضح فى نص النويرى السكندرى كأبرز مصدر أرخ لهذه الحملة على مدينة الإسكندرية المصرية، هذه الروايات التى مثلت حكياً شعبياً ومصدراً هاماً إستطاع النويرى من خلاله إستكمال الصورة التاريخية بشكلها المتكامل، وحسب المؤرخ الكبير عزيز سوريال عطية الذى حقق كتاب الإلمام أن النويرى من خلال تصويره للحكايات ألبس النص التاريخى " ثوب الدراما" [٣].

وما يزيد الأمر أهمية أن الروايات الشفوية فى كتاب الإلمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية " أو الذى عُرف أيضاً بمرآة العجائب هى رواية إستثنائية كونها أرخت للذهن الشعبى فى العالم الإسلامى ورصدت الموقف الشعبى من حملة القبارصة، وكطبيعة أى نص شعبى فإنها رصدت صراع الحق والباطل، الباطل متمثلاً فى الغزو الغاشم للقبارصة وملكهم بطرس لوزجنان والحق متمثلاً فى الجانب الإسلامى ممثلاً قيمة الدفاع عن الوطن والأرض، وعلى مدار نص النويرى لم يتطهر بطرس من خطيئته ودنسه بما ألحقه من دمار فى هذه البقعة من العالم الإسلامى،

(١) للتفاصيل: انظر Machaut: ٩٩-٩٦. G.La prise d' Alexandrie,geneve, G., PP انظر أيضاً: النويري الكسندري: الإلمام، جـ ٢، ص ١٥٩-١٦٢ ؛ وكذلك سهير محمد نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ١٧٧-١٨١.

(٢)النويري الكسندري: الإلمام، جـ ٢، ص ١٥٩-١٦٢ ؛ وكذلك سهير محمد نعينع: الحروب الصليبية المتأخرة، ص ١٧٧-١٨١.

(٣) النويري: الإلمام، ج٥، ص هـ.

وبالتالى ينتصر النص الشعبى ورواته على هذا الدنس بأوصاف تُحقر وتقلل من حاكم قبس الذى تم وصفه على مدار صفحات الكتاب بمجلداته الأربع بأنه " لص ".

وبالتالى فإن هذا البحث لن يتوقف عند تفاصيل الأحداث بشكل مفصل والتى سبق وأن قدمنا لها، ولكن بيت القصيد هنا هو رصد الحكاية الشعبية وتماسها مع التاريخ الشفوى ومع الرواة اللذين اعتد عليهم النويرى السكندرى وبنى من خلالهم نص إستثنائى.

الرواية الشفوية والرؤى والأحلام والمنامات عن غزو القبارصة:

ينقل النويرى بعض الروايات الشفوية والتى تعكس جانباً ذهنياً غاية فى الأهمية وهو جانب يتعلق بالرؤى والأحلام [١] التى صاحبت الغزو، وفى واقع الأمر فإن تماس الحلم مع الرواية الشفوية مع الحكى الشعبى هو أمر بالغ الأهمية، فالحلم يحتل مكانة مرموقة بين أساليب السيطرة الخرافية على المصير ويعتبر من الناحية الشعبية بشير فأل أو نذير شؤم ونوائب، واستعراض تأويل مختلف أنواع الأحلام يظهر أنه يدور دوماً حول مجموعة من الأزواج المتناقضة التي تمس كلها المصير المهدد للإنسان المقهور، تنذره بكارثة أو تبشره بفرج قريب[٢] وفي التراث الشعبي فالحلم يظهر ليتيح الفرصة للتفسير والتعليل للكثير من السلوكيات الغير منطقية، والنقلات والأحداث التي يطفو بها القاص الشعبي بعيدا عن عالم الواقع والمنطق [٣]

تأسيساً على ما سبق فقد نقل النويرى رواية شفوية أخرى مفادها أن الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد المؤدب أخبره أنه رأى فى المنام قبل وقعة الإسكندرية بأيام قلائل كأن سبابته احترقت بالنار، فعبر المنام المذكور أن الإسلام يحدث فيه حدث، فحدث أمر القبرسى بالإسكندرية، وفى إطار الرؤى والأحلام الواردة عبر روايات شفوية ينقل النويرى أيضاً ما أخبره به الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن أحمد التاجر السفار قال: كنت بالاسكندرية فرأيت فى المنام قبل الوقعة بخمسة عشر يوماً كأنى فى قصر عظيم على ساحل البحر المالح وجماعة كثيرة من الرجال والنساء خارج القصر وكأنهم أحسوا بعذاب، فصارت النساء يلطمن خددودهن ويقلن واه واه، فقلت لهن قولوا: يا رسول الله نحن فى حسبك، نحن فى جيرتك. ثم قال ورأيت طائفة من الفرنج مسلسلين داخلين

(١) راجع أيضاً فى هذا السياق: الأمين عبد الحميد أبو سعدة: البُعد السياسي للأحلام في بيزنطة والعالم الإسلامي: دراسة مقارنة، بحث منشور فى مجة، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، جامعة عين شمس، ٢٠١٦.

(٢) يوسف ميخائيل أسعد: معتقدات وخرافات، دار النهضة العربية، القاهرة، د. ت، ص ١٤١.

(٣) فاروق خورشيد: "الأحلام في الموروث الشعبي"، مجلة الفنون الشعبية، القاهرة، عدد ٢٧،٢٨، ١٩٨٩، ص ٤٤-٥٢.

الاسكندرية وفيهم جنس لهم أذناب كأذناب القرود، قال فانتبهت من نومى مذعوراً مما رأيت فجرى بعد ذلك وقعة الاسكندرية (١).

نقل النويرى رؤى أخرى تتعلق بهذا الصدد أحدهما ما رواه له الشيخ على بن راشد الحجازى المقيم بالإسكندرية قال أنه رأى فى المنام قبل الوقعة بنصف شهر نسوة طوال القامات عليهن الأزر الأبيض فسألت إحداهن عنهن فقالت إنهن أولاد الأنبياء والشهداء والصالحين ضمهن آباؤهن خارجين بهن من الإسكندرية فقلت ما سبب ذلك ؟ قالت إن الإسكندرية مسخوط عليها، قال فضربت بيدى الواحدة على الأخرى وإذا أنا اسمع – حسب الراوى – حس جال ولا أراهم، ثم إن النسوة اختفين... فانتبهت من نومى مرعوباً فجرى بعد ذلك وقعة الإسكندرية (٢).

ونقل النويرى أن الشيخ الصالح ريحانى الحبشى قال بينما " أنا نائم بدمشق فى شهر رمضان سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م وإذا بقائل يقول قم وامض إلى الإسكندرية لتصلى على أهلها، قال فانتبهت من نومى وأنا متعجب من ذلك فسافرت إلى القاهرة فأقمت بها أياماً وتوجهت إلى الإسكندرية فى أول المحرم سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م وعلم أن الإفرنج دخلوا الإسكندرية (٣).

الرواية الشفوية والحقائق الاستثنائية فى أحداث غزو القبارصة:

كشفت بعض الروايات الشفوية حقائق تفردت بها، فقد سلطت الضوء على الخيانات فى المعسكر الإسلامى فمن هذه الروايات الشفوية التى ساقها النويرى أن كاتب الديوان ويدعى شمس الدين بن غراب كان متعاملاً مع صاحب قبرس، وأن صاحب قبرس أتاها قبل الوقعة فى زى تاجر آواه إبن غراب مدة فصار القبرسى يتمشى بالبلد من جملة الفرنج التى بها تجاراً وهو يكيفها وينظر أحوال الناس بها وعندما علم الأمير صلاح الدين بن عرام بذلك بعد قدومه من الحج، وسط شمس الدين بن غراب وعلقه قطعتين على باب رشيد (٤).

(١) النويري: الإلمام، ج١، ص ١٠٤.

(٢) النويري: الإلمام ، ج١، ص ١٠٥.

(٣) النويري: الإلمام، ج١، ص ١٠٦.

(٤) النويري: الإلمام، ج١، ص ١٥٨.

وفى إطار التحليلات ذات المرجعية الشعبية التى قدمها النويري السكندرى " إن بطرس صاحب قبرس لعنه الله لما ولى الملك بعد هلاك أبيه ريوك أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن يسأله أن يرسم له بالتوجه إلى بلد صور بساحل الشام ليجلس على عمود بها كعادة كل من تملك جزيرة قبرس، لأنه لا يتم له ملكها بزعمهم إلا بالجلوس على ذلك العمود أو مكان مختص بجلوس الملك فيه ليتم له بذلك الملك، ويصح له نفاذ حكمه في رغبته، فاحتقره السلطان ومنعه الدخول إلى بلد صور، فكان ذلك ــ والله أعلم ــ سببا لغزو الإسكندرية". انظر: الإلمام، جـ٢، صـ٩٦ـــ٩٧ ؛ ايهاب محمد رزق: تاريخ العلاقات الدينية والمذهبية بين فئات المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ٢٩٩.

ومن المناحى بالغة الأهمية والدلالة والتى يمكن أن تعطينا ملمح وواضح عن الفرق بين أجندات الغزاة الصليبيين وبين المسيحيين المواطنين فى بلدان العالم الإسلامى فمن هذه الروايات التى نقلها النويرى فلما جاء صاحب قبرس خاف المسلمون فاجتمعوا بنصارى الأرمن المقيمين معهم بالبلد وكلموهم فى أمره فقال الأرمن أيها المسلمون انظروا ماذا تفعلون فإن هذا الكلب الملعون قد أتى إلينا قصده يملك القلعة والبلد منكم ويأسركم ويأسرنا أو يقتلكم ويقتلنا فتحالفوا بنا على غراته وكسر قناته [1]، فى حين يذكر النص الرسمى صورة مغايرة نقلها المقريزى: وعلى الرغم مما عاناه أهل الذمة على يد الصليبيين، يقول المقريزي: "وانضم إليهم من كان بالثغر من النصارى، ودلوهم على دور الأغنياء"[2].

الرواية الشفوية للغزو وتصوير إمتهان المرأة كما عكسه النويرى:

نقلت روايات أخرى عكسها النويرى حالة إمتهان المرأة السكندرية إبان هذا الغزو، فقد خشين بعض النساء من معارضة رغبات بعض الغزاة فى الإسكندرية خوفا منهم فعندما دخل بعض الإفرنج داراً بالإسكندرية فوجدوا امرأة بارعة الحسن فاختارها كبيرهم لنفسه وكانت أمها ساكنة بدار تقابل دارها فلما رأت الأم الإفرنج هجموا على بيت ابنتها خرجت مسرعة إليهم فتوهمت أنهم سوف يقتلونها فجعلت تقول اقتلوني ولا تقتلوها، فقال لها لن نقتلك ولا نقتلها بل نحسن لك ولها، فقد أحببتها وأريد أن آخذها معى سنة وأردها إليك ولا أمكن أحدًا من نهب دارك ولا دارها إكراماً لها وسوف أردها بالهدايا وأعطاها خمسة وعشرين دينارا استجلاباً لقلبها وأعطاها شنيارا يعرف به تعلقه على طلق دارها حتى لا يتعرض أحد من الإفرنج لدارها، فواقفت البنت وأمها خوفا منه وذهبت معه[3].

نقل النويرى أيضاً وجود امرأة ذات حسن تأخرت في دارها هي وجواريها عن الهروب حين الوقعة بالإسكندرية، فدخلت الإفرنج إليها بأيديهم السيوف المسلولة فلما رأتهم نهضت قائمة وصارت من الفزع كالمهبولة فنغزها أحدهم بالسيف طالبا منها الأموال فازداد رعبها فأدلت على مكانه وصارت ترعد من الخوف، وإن كانت قد استطاعت النجاة بعد ذلك [4].

(١) النويري: الإلمام، ج٥، ص ١٦٩.
(٢) السلوك، جـ٣، صـ١٠٦.
(٣) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص٢٨٢-٢٨٥؛ ص٥٠٢.
(٤) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص١٨٢-١٨٤.

نجح النويرى من خلال مصادره التقليدية بالإضافة للروايات الشفوية فى تصوير حالة الهلع التى خلفها غزو القبارصة للإسكندرية، فلم تكن هى الأخرى بأقل نصيباً فى تأجيج مشاعر الخوف والفزع لدى العناصر السكانية وتحديداً أهل الإسكندرية، فيذكر النويرى أن أهل الإسكندرية ظلوا مدة طويلة هم وآباؤهم في عافية فلما رأوا ما حل بهم من الداهية فزعوا فتركوا ديارهم مقفولة حين رأوا سيوف الإفرنج مسلولة، وشرد كل أحد من البلد فارغ، وعقله من الخوف جارف فخرجوا من الأبواب شاردين إلى البحر طالبين فتمكن الإفرنج من الظفر بالإسكندرية [١]، وبذلك فإن لغة النص التى تصور حالة الخوف والهلع الذى تزامن مع غزو القبارصة كانت قاطعة الوضوح، حتى أنه صور حال أهل الإسكندرية بأن عقلهم كان فارغاً من الخوف، وعكس أيضاً مظاهر الهلع والفزع منها ما نقله النويرى فقد احتمت امرأة بدار عجوز والرعب يمتلكهن، فدخل الإفرنج عليهن فوجدوا العجوز جالسة على سرير فلم يجدوا ما يأخذونه فقتلوها بسيوفهم، والأخرى كانت مختبئة تحت هذا السرير فصارت الدماء تسيل على رأسها ووجهها فبقت مكانها خائفة مرعوبة صار قلبها يضطرب كاضطراب السمكة، فلم تزل على حالها خائفة مرتعبة حتى سمعت الآذان[٢].

من هذه الروايات الشفوية أيضاً ما دل على وجود عدد كبير من أسرى النساء السكندريات فى معسكر صاحب قبرس فى الإسكندرية، وأن أحد السفراء ذهب للتفاوض فى عملية لتبادل الأسرى السكندريين مقابل ثمانية وأربعين إفرنجياً تجاراً، فقال له صاحب قبرس سلم على نائب السلطان – يقصد إبن عرام– وقل له يكتب لنا كل واحد منهم كتاباً بخطه الرومى يعرفنا إسمع وإسم أبيه وأمه وكم فى الشهر الرومى من يوم مسك فإن صح ذلك عندنا علمنا أنهم بالحياة فنفديهم بأسارى الإسكندرية [٣].

الرواية الشفوية الشعبية والانتصار المعنوى على صاحب قبرس:

كان لغزوة القبارصة صدى مدوى على العالم الإسلامى، نُظر لها أنها فاجعة كبرى، ونظراً لفجاعة الحدث إستخدمت كلمات مؤثرة نقلها النويرى كان أبرزها " يالثارات الإسكندرية " [٤]، فقد كانت هذه الواقعة أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث" [٥].

(١) النويري: الإلمام، ج٣، ص٣٠٥.
(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٤، ص ٣٠٨–٣١٠.
(٣) النويري: الإلمام – ج٣، ص ٢١١.
(٤) النويري: الإلمام، ج٥، ص ٣٢٢.
(٥) السلوك، جـ٣، صـ١٠٨.

وفى الأُطر الشعبية لا يكتفى الراوى الشعبى بمجرد النصر العسكرى أو الانسحاب بل ابتكر الراوى الشعبى وسائل أخرى تضمن الانتصار المعنوى على الجانى المتمثل فى بطرس صاحب قبرس المُعتدى على الإسكندرية، وفى واقع الأمر فالراوى الشعبى لا يهمه سوى تلبية الحاجات الاجتماعية والثقافية للمتلقين من عامة الشعب خصوصاً أن رؤية عامة الشعب للأحداث التاريخية تجاوز حدود الزمان والمكان وتفاصيل الحوادث، ولا تلقى بالاً إلا لصورة كلية للأحداث مليئة بالكثير من الرموز الاجتماعية والثقافية تعبر بصدق عن موقف الجماعة حيال هذه الأحداث [١].

تأسيساً على الرؤية السابقة تعكس الروايات الشفوية التصور الشعبي للغزاة متمثلين فى صاحب قبرص الذى وُصف بالرجس الخناس [٢]، ووصفته الروايات الشعبية المستقاه من مصادر شفوية بأنه " الملعون "، واستطردت للقول بأن هذا الملعون لما ظفر بالإسكندرية أرسل للابن عمه بجنوة خمسمائة من أسراها وأسرى غيرها، وكان الذى بجنوه يهاديه أيضاً ويساعده على مقاصده، وإن القبرسى بخل على أمرائه القبارسة، وكل شىء حصل له من الإسكندرية هادى بأكثره الملوك وحرم أمرائه منه وقرب الفرنسيين[٣].

وفى موضع آخر للانتصار المعنوي يذكر النويرى التالى: القبرسي الملعون" جمع من لصوص النصرانية والتي أتى بهم إلى الإسكندرية؛ وسرقوا أساسها على حين غفلة من حماتها فلو أقام الملعون بها حل به من جيوش الديار المصرية كل بلية، لكن الأمر صار إلى غير أهله بولاية الأمير جنفرا وقلة جنده وجهله بتدبير الأمور وعدم معرفته بمواقع الحروب؛ بولاية ضعفاء الرجال كبار الأعمال فعلم اللص من أين يدخل يسرق فدخلها سرقها وهرب عنها خوفاً من كبسة جيش مصر عليه لو أدركوه بها [٤].

ومن هذا أيضاً ما نقله عن أوصاف شعبية بأسطول صاحب قبرص ووصفه بالأسطول المخذول عند توجهه إليها الريح العاصف الشديد القاصف، ولبعضه شتته ومزقه وغرقه فرجع بعض الأسطول إلى جزيرة قبرس مخذولاً فأقيمت الجنائز على من غرق من رجالهن ويتم من أولادهن وطلبو هلاك ربير بطرس صاحب قبرس من الله تعالى بالدعاء عليه، وقالوا ما كفاه قتل الرجال الذين اصطحبهم معه إلى الإسكندرية وسرية

(١) محمد فوزى رحيل: بين التاريخ والفلكلور صلاح الدين الأيوبى فى السيرة الظاهرية، مجلة الخدمة للإستشارات البحثية، كلية الآداب جامعة المنوفية، الإصدار رقم ٤٠، ابريل٢٠١٠، ص٢٧٢.

(٢) النويري: الإلمام، ج٥، ص ٧٦.

(٣) النويري: الإلمام، ج٣، ص ٨٣.

(٤) النويري: الإلمام، ج ٣، ص ٦٤-٦٥.

العلايا التى جعل لهم من المسلمين البلايا حتى تسبب فى غرق الباقيين وأرمل النسوان وأيتم الأطفال المساكين وذلك بعد إفساده لحالنا بأخذه لمالنا فلم يعبأ بكلامهم ولا فكر فى غرق رجالهم حتى تجهز ثانياً وقال لابد من غزو سواحل الشام ولو سقيت كأس الحمام"(١).

ومن الحكايات الشعبية الشفوية التى نقلها النويرى أيضاً فى مرحلة ما بعد غزوة الإسكندرية أنهم استأنفوا حملاتهم على العالم الإسلامى فاتجهوا لطرابلس فى مجموعة من القطع البحرية فلما عاينهم المسلمون حبسوا ستة من الإفرنج كانوا تجار بطرابلس أحدهم شاب جميل الصورة محتشم قيل إنه إبن صحب جنوة، وقيل إنه كان إبن أخت القبرسى وإن أحد نصارى الذميين دس له سيفا فقتل به ستة من المسلمين المسجونين هجموا عليه ذبحوه وذبحوا من كان معه (٢).

ومن الروايات الشفوية التى نقلها النويرى أن محمد بن بهادر الكركرى حدثه بقوله " كنت فى اللاذقية عند إتيان القبرسى فهاج عليه ريح عاصف فانكسرت له ثلاث شوانى وأتى منهم دون العشرين علجاً بالعوم، وقذف البحر إلى الساحل عشرة أفراس موتى وجلس فى قاع البحر شينى (٣).

ولم يغب حضور القدس الشريف عن تلك الأخبار التى أورده النويرى فقد نقل كتاب صاحب قبرس إلى صاحب طرابلس قائلاً له " **إن البلاد بلادنا والقدس قدسنا، فإن مكنتمونا من بلادنا فنحن وإياكم على العهد وإن لم تمكننونا فبيينا وبينكم السيف** ".

وكان رد الأمير بتعييره بما حدث له فى الإسكندرية واصفاً إياه أن لص وليس بسلطان ولو كنت سلطان لكنت أقمت بالإسكندرية وناضلت عنها حين ظفرت بها بل هربت بسرعة والهروب من شأن اللصوص بل حوصلت وطرت، أما عن القدس فلم ينس أن يخصص له حديث خاص بقوله " وأما قولك القدس قدسنا، فحاشا الله أن يكون القدس لك لأنك رجس نجس والقدس طاهر مطهر وما ينبغى للرجس النجس الكافر المشرك أن يكون مجاوراً للطاهر المطهر (٤).

---

(١) النويري: الإلمام، ج٥ ، ص ٧٨.

(٢) النويري: الإلمام، ج٥، ص ٨٧، فى هذا الصدد نقل النويرى رواية أخرى مفادها أن أخت القبرسى قالت له لا أستقر ولا أهدأ حتى تخرب طرابلس وتجعلها كوما لتصير كنيسة على ولدى المقتول بها بسيوف المسلمين. انظر: النويري: الإلمام، ج ٥، ص ١٨٦.

(٣) النويري: الإلمام، ج٥، ص ١٦٢.

(٤) النويري: الإلمام، ج٥، ص ١٢٤.

كما نقل النويرى أن صاحب قبرس فى حملته على طرابلس جرح عدة جروح من المسلمين فصار القبرسى فى ألم من جراحاته وارتحل أسطوله من ساعتها [١].

أما عن النصر المعنوى الأخير الذى احتفت به الرواية الشعبية أنه فى عام ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م أتى الخبر إلى الإسكندرية بأن أخو صاحب قبرس قتله فقال أهل الجزيرة لقد استرحنا من الفتن وأخذه لأموالنا بالقهر وتقريبه لفرنسيين وفتكهم فى حريم النصارى بما لا ترضاه الأساقفة ولا القسيسيون فهلم وقضى ومضت روحه إلى نار لظى [٢].

مواضع تفرد الرواية الشفوية في نص النويرى:

النص الشعبى بطبيعة الحال هو نص متفرد يحمل ما لا يمكن للنص التاريخى التقليدى أن يقدمه، هو وجه مغاير وفسيفساء مكملة للنقص فى المصادر الحولية، وبالتالى فإننا هنا فى موضع يتيح لنا رصد كل ما تفرد به النص الشعبى، ما زاد من خصوصية هذا النص أن عتباته فى أغلبها قائمة على روايات شفوية الأمر الذى يزيد من زخم المادة العلمية المطروحة.

وكما رأينا فإن نص النويرى كان أشبه بالنص الدرامى رصد تاريخ الغزوة كحكاية تدور بين طرفى الحق والباطل، كما قدمت هذه الروايات الممزوجة بين الشفوى والشعبى مناحى أكثر رحابة تتعلق بالرؤى والأحلام وهى بطبيعة الحال مادة معتبرة اعتمدت كأبرز مصادر المناهج الجديدة فى التأريخ، وقد تمحورت هذه الأحلام فى توقع الأحداث الكارثية والمشاعر الحزينة المضطربة وخروج أبناء الأنبياء والشهداء من الإسكندرية، ورؤية بعض الصالحين من التوجه للصلاة على أهل الإسكندرية كمقدمات للفاجعة، ولكن هذا الهلع لم يلبث إلا أن ينقشع برؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام والاعتصام به للنجاة من الغزو المرتقب هذا الملمح أحد أبرز سمات النص الشعبى.

من المناحى البالغة الأهمية أن النص الشعبى الذى قدمه النويرى بمصادره الشفوية يقدم رؤية مغايرة ومتفردة تتعلق بموقف الأقباط فى مصر من الغزوة، فالنصوص التقليدية أبرزت تواطؤ أهل الذمة مع القبارصة المحتلين، إلا أن النص الشعبى ذكر تضامنهم الكبير مع السكندريين دفاعاً عن الأراضى المصرية التى يعيشون عليها.

(١) النويري: الإلمام، ج٥، ص ١٥٣.

(٢) النويري: الإلمام، ج٣، ص ٨٢ والتى تليها.

بالإضافة إلى ما سبق فقد سلط النص الشعبى الضوء على الممارسات الغاشمة التى وجهها الغزاة تحديداً للمرأة السكندرية، وهنا يقدم النص معلومات إستثنائية والمرأة بطبيعة الحال تتمتع بخصوصية فى مجتمعات العالم الإسلامى، وبالتالى فإن وقوف النص الشعبى على هذا المحور له دلالة مجتمعية بالغة الأهمية.

أبرز ما قدمه الراوى فى نص النويرى السكندرى هو الانتصار المعنوى الشعبى على بطرس، فحشدت له الروايات أسوأ الأوصاف، وكان الوصف الأبرز له أنه " لص "، كما مارست عمليات تجريس معنوية واضحة ضد الغازى المحتل، وبطبيعة الحال فإن هذه الأوصاف التى تعكس الرؤية الشعبية لحملة القبارصة هى أمور إستثنائية لم تكن لتتواجد فى النصوص الحولية التقليدية، وبالتالى مارست نصوص النويرى السكندرى ومصادره إنتصاراً معنوياً كبيراً على القبارصة فاق أى إنتصار عسكرى.

وأخيراً فإن الرواية الشفوية بتضافرها مع نص النويري السكندرى قدمت تأريخاً إستثنائياً وحكيًا شعبيًا متفردًا لم يتواجد على صفحات نصوص التاريخ الحولى الأمر الذى أكمل نواقص الصورة وسلط الضوء على محاور لم يتم التفكير فيها وبالتالى فإن تقديم تأريخ لهذه الحادثة دون الاعتماد على تلك الروايات الشفوية والرؤية الشعبية هو تأريخ مبتور.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

ابن إياس: " أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس" ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م.

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٨م.

ابن تغري بردي: " جمال الدين أبو المحاسن يوسف " ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق حسين نصار، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

المقريزي: " تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي" ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م.

السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣، ج٤، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

النويري السكندري: " محمد بن قاسم بن محمد المالكي" ت٧٧٥هـ / ١٣٧٣م

الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الأسكندرية، تحقيق عزيز سوريال، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٧٠م، والنسخة المصورة طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٥.

ثانياً: المراجع العربية:

السيد عبد العزيز سالم :

تاريخ الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٦٩.

السيد عبد العزيز سالم، سحر عبد العزيز سالم:

دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٩٩م.

جمال حجر:

من وثائق التاريخ الحديث، الإسكندرية، د.ت.

حمدي عبد المنعم:

دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م

سعيد عاشور:

العصر المماليكي في مصر والشام؛ الأنجلو المصرية، ١٩٩٤.

قبرص والحروب الصليبية الهيئة العامة المصرية للكتاب، ٢٠٠٢.

مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢.

سهير محمد نعينع:

الحروب الصليبية المتأخرة " حملة بطرس الأول لوسنيان على الاسكندية، دار عين، القـاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢.

عبد المنعم ماجد:

التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، الانجلو المصرية ١٩٨٨.

محمد محمود النشار:

العلاقات الأرجوانية المملوكية، دار رؤية، القاهرة، ٢٠١٨.

يوسف أسعد ميخائيل:

معتقدات وخرافات، دار النهضة العربية، القاهرة، د. ت.

ثالثاً: المراجع المترجمة:

ستيفن رانسيمان:

تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العرينى، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

رابعاً: الدراسات والمقالات:

الأمين عبد الحميد أبو سعدة:

البُعد السياسي للأحلام في بيزنطة والعالم الإسلامي: دراسة مقارنة، بحث منشور فـى مجـة، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، جامعة عين شمس، ٢٠١٦.

خالد أبو الليل:

التاريخ الشفاهى الأصول النظرية والتجليات العربية، بحث منشور بمجلة عالم الفكـر، المجلـد ٤٣، الكويت،٢٠١٤.

فاروق خورشيد:

"الأحلام في الموروث الشعبي"، مجلة الفنون الشعبية، القاهرة، عدد ٢٨/٢٧، ١٩٨٩.

محمد فوزى رحيل:

بين التاريخ والفلكلور صلاح الدين الأيوبى فى السيرة الظاهرية، مجلة الخدمـة للإستـشارات البحثية، كلية الآداب جامعة المنوفية، الإصدار رقم ٤٠، ابريل٢٠١٠.

خامساً: الرسائل العلمية:

أحمد محمود عبد الجليل:

تدوين العلوم في العصر العباسي، رسالة ماجستير، كلية الآداب جامعة عين شمس، ٢٠٠٤م.

ايهاب محمد رزق:

تاريخ العلاقات الدينية والمذهبية بين فئات المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، رسالة دكتوراه، مصر، ٢٠٢١.

سادساً: المصادر والمراجع الأجنبية:

Atiya: (A.s): Crusades in the later Middle Ages, London, ١٩٣٨.

Machaut, G.La prise d' Alexandrie,geneve, ١٨٧٧.